الفصل الخامس

الإعجاز البلاغي

كان من حكمة العليم الخبير جَلَّ جلاله أن يؤيد كل رسول بمعجزة من جنس ما برع فيه قومه لتكون الحجة عليهم أبلغ، ولما نزل القرآن على رسول الله محمد ﷺ بإعجازه العظيم أسكت كل فصيح أو بليغ، وأفحم كل مجادل ومناظر، وأخرس كل معارض ومكابر، وعجز العرب كلهم عن الإتيان بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة من مثله، فإذا عجز العرب عن ذلك فغيرهم من باب أولى لاسيما وقد كانوا أصحاب دراية لغوية وبراعة أدبية وذوق عالٍ، وما عُرِف عن واحدٍ منهم أنه تكلم في القرآن بنقد لغوي أو بيان خطأ بلاغي، بل المعروف عنهم أنه قد أذعنت له عقولهم وتضعضعت لعظمته نفوسهم، وتضاءلت أمام بلاغته قرائحهم، وهذا مع حرصهم الشديد على إطفاء نوره، وإصرارهم العنيد على محوه وحربه، ولكن من ذا الذي يستر النهار إذا طلع، ومن ذا الذي يطفئ نور الشمس إذا بزغ؟!

ومن أمثلة إذعان أئمة الكفر لبلاغة القرآن وبيانه أنه لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر[1]!!

وذكر أبو عبيد أن أعرابيًا سمع رجلًا يقرأ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، فسجد الإعرابي وقال: سجدت لفصاحته، وسمع رجلًا آخر: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ [يوسف: ٨٠]، قال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام.

---

(١) رواه الحاكم، والبيهقي، وقال محقق الشفا (١/ ٢٧٣) حسن بمجموع الطرق ط. دار ابن رجب.

وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت: أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين[١].

يقول ابن عطية في المحرر الوجيز: وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير النظر على لفظة أحسن منها لم يوجد وقامت الحجة على العالم بالعرب إذا كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة[٢].

ويقول الشيخ أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ هناك حقيقتان ثابتتان:

الأولى- أن قريشًا مع شدة ملاحاتها للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بغير ما يحبون وذكر أوثانهم بغير ما يؤمنون لم يتحركوا؛ لأن يقولوا مثله وأذعنوا لبلاغته وقوته.

الثانية- أن القرآن جذب العرب إلى الإيمان بما فيه من روعة وقوة بيان وإيجاز معجز وأقوال محكمة وقصص تطول وتقصر وهي مملوءة بالعبرة في طولها وقصرها وإطنابها الرائع وإيجازها الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أوفاها بالعبارة الناصعة والإشارة الواضحة، فالقرآن هو الذي جذب إلى الإيمان بما فيه من بيان أدركوا أنه فوق طاقة البشر، وأنه حقائق ثابتة كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وإن الثابت مع ذلك أنه لم يحاول أحدٌ من أهل البيان أن يأتي بمثله ولم يعرف ذلك[٣].

---

(١) «الشفا» (١/ ١٧٢)، ط: الصفا.

(٢) «المحرر الوجيز» لابن عطية الأندلسي (١/ ٢٧٨).

(٣) «المعجزة الكبرى» للشيخ محمد أبي زهرة، ص(٥٣-٥٤) باختصار، ط: دار الفكر.

ومن وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن ما يلي:

أولًا - أسلوبه الفريد ونظمه العجيب:

حيث لم يوجد قبل القرآن ولا بعده نظير له في نظمه وأسلوبه، فالعرب إنما يعرفون الشعر والنثر والقرآن يخالف الشعر ويخالف النثر، وما استطاع أحدٌ من العرب مماثلته، بل حارت فيه عقولهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو شعر.

ولما سمع الوليد بن المغيرة القرآن رقَّ فجاءه أبو جهل منكرًا عليه، فقال: والله ما منكم من أحدٍ أعلم بالأشعار مني والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا.

وفي خبر آخر أنه حين جمع قريشًا عند حضور الموسم وقال: إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأيًا، لا يكذب بعضكم بعضًا، فقالوا: نقول كاهن، قال: والله ما هو بكاهن ما هو بزمزمته ولا سجعه، قالوا: مجنون، قال: ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته، قالوا نقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه، ما هو بشاعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول؟ ال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا وأنا أعرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه أنه ساحر فإنه سحرٌ يفرق بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعشيرته، فتفرقوا وجلسوا عى السبل يحذرون الناس[1].

وقال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: والله ما سمعتُ بأشعر من أخي أنيس لقد ناقض اثنى عشر رجلًا في الجاهلية أنا أحدهم وإنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو ذر له: فما يقول الناس؟ قال يقولون شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعتُه على أقراء الشعر فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر وإنه لصادق وإنهم لكاذبون[2].

(١) «الشفا» (١/ ١٧٤)ط. الصفا، «تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٧)، ط: التوفيقية.

(٢) رواه مسلم برقم [٢٤٧٣].

يقول الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن القرآن إنما ينفرد بأسلوبه؛ لأنه ليس وضعًا إنسانيًا ألبتة، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوبًا من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد، ولا من الاختلاف فيه عند ذلك بُدٌّ في طريقته ونسقه ومعانيه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٦]، ولقد أحسَّ العرب بهذا المعنى واستيقنته بلغاؤهم ولولاه ما أفحموا ولا انقطعوا من دونه؛ لأنهم رأوا جنسًا من الكلام غير ما تؤديه طباعهم، وكيف لهم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة؟

ثانيًا- الروعة والهيبة له في قلوب السامعين:

ومن وجوه إعجاز القرآن البلاغية الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وعظمة تأثيره، وبلاغة لفظه، وجلال معناه، فإن كان السامع له من المؤمنين به فإنه يداخله روعة في أول سماعه وخشية ثم لا يزال يجد في قلبه هشاشة إليه ومحبة له وطمأنينة بسماعه، وإن كان السامع له من المكذبين له فإنه يستثقل سماعه ويزده نفورًا ويود أن يقطع عنه لكراهته له[1]، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦].

وقال الله تعالى في بيان تأثير هذا القرآن: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

---

(١) «الشفا» (١/ ١٨٠)، «البرهان» للزركشي (٢/ ١١٤)، ط: دار الكتب العلمية.

وانظر لتلك الروعة التي تأخذ بالألباب وتؤثر في النفوس تأثيرًا بليغًا حتى تخشع له القلوب والجوارح وتخر ساجدة مع النبي ﷺ برغم أن من هؤلاء السامعين قوم مشركون مكذبون وآخرون من الجن، ولكن كل سامع لهذه التلاة من النبي ﷺ خر ساجدًا لله عز وجل معه، كما روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[1].

وقال الملأ من قريش ذات يوم: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلًا عالمًا بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر وعلمت من ذلك علمًا لا يخفى عليَّ إن كان كذلك فقالوا: ايته فحدِّثه، فأتى النبي ﷺ، فقال له: يا محمد أنت خير أم قصي بن كلاب؟ أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا وتسفِّه أحلامنا وتذم ديننا؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا، فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك من بعدك، وإن كان الذي يأتيك رئيًا من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك، والنبي ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: «**قد فرغت يا أبا الوليد؟**»، قال: نعم، قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ حمٓ ۝٢ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١-١٣]، فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي ﷺ وناشده الله والرحم ليسكتن ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل، فقال: أصبوت إلى محمد؟ أم أعجبك طعامه؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم

(١) رواه البخاري برقم [٤٨٦٢].

محمدًا أبدًا، ثم قال: والله لقد تعلمون أني من أكثر قريش مالًا، ولكني لما قصصتُ عليه القصة أجابني بشيءٍ والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، وأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب يعني الصاعقة(١).

وقد التقى يومًا على جسر بغداد ابن الرواندي الزنديق هو وأبو علي الجبائي المعتزلي، فقال له ابن الراوندي: يا أبا علي، ألا تسمع شيئًا من معارضتي للقرآن ونقضي له؟ قال الجبائي: أنا أعلم بمخازي علومك وعلوم أهل دهرك، ولكن أحاكمك إلى نفسك، فهل تجد في معارضتك له عذوبة وهشاشة وتشاكلًا وتلاؤمًا ونظمًا كنظمه وحلاوة كحلاوته؟ قال: لا والله، قال: قد كفيتني فانصرف حيث شئت(٢).

يقول القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد عدَّ جماعة من الأئمة ومقلدي الأمة في إعجازه وجوهًا كثيرة منها أن قارئه لا يملُّه وسامعه لا يمجُّه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة وترديده يوجب له محبة، لا يزال غضًّا طريًّا، وغيره من الكلام، ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه يمل مع الترديد ويعادي إذا أُعيد، وكتابنا يستلذ به في الخلوات، ويؤنس بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك حتى أحدث أصحابها لحونًا وطرقًا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها(٣).

ثالثًا- جمع القرآن بين صفتي الجزالة والعذوبة:

ومن وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالبًا في كلام البشر؛ لأن الجزالة من الألفاظ لا توجد إلا بما

(١) أخرجه الحاكم [٣٠٠٢]، وصحح إسناده، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٠)، رواه أبو يعلى وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات، قلت: وقد سبق ذكره والإشارة إلى ضعفه.

(٢) «إعجاز القرآن» للرافعي، ص [١٨٣].

(٣) «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٨٣)، ط: الصفا.

يشوبها من القوة وبعض الوعورة، والعذوبة تتطلب سلاسة وسهولة، فمن أراد الجزالة فإنما يقصد الفخامة والروعة في الأسماع مثل الفصحاء من الأعراب، وفحول الشعراء منهم، ومن أراد العذوبة قصد أن يكون الكلام في السماع أعذب وأشهى وذلك كأشعار المخضرمين والمتأخرين، وترى ألفاظ القرآن جمعت في نظمه كلتا الصفتين وذلك من أعظم وجوه البلاغة[١].

قال بعض العلماء: إن في القرآن شيئًا مما لا يتفق للناس إلا أمثلة من الإعجاز البلاغي صناعة ولم يكن يعرفه العرب ولا انتبهوا إليه كهذا النوع البديعي الذي يسمونه ما لا يستحيل بالانعكاس وهو الذي يقرأ من أوله وآخره سواء ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ [يس: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣].

أمثلة من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم

أولًا - بلاغة الحذف والإثبات:

١- قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]، التقدير أنا عجوز، وذلك حين بشرت الملائكة زوج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإنجاب بعد أن طعنت في السن، وهذا الحذف إنما هو للإيحاء بالموقف النفسي الذي كانت عليه زوج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ آنذاك[٢]، وهو شعورها بالعجب والدهشة عند تلقيها تلك البشرى التي طالما تاقت إليها وتقطعت زهرة شبابها حسرة على فواتها والعجب والدهشة إنما يتعلقان بالمسند «عجوز» لا بالمسند إليه المحذوف «أنا» إذ كيف تنجب من بلغت سن اليأس وصارت عجوزًا فحذف المسند إليه «أنا» إذن هو للإيحاء بمدى تعلق

(١) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (٢/ ١١٤-١١٥).

(٢) المقصود بها هنا السيدة سارة لا هاجر كما هو واضحٌ.

مشاعرها بالمسند أو لنقل كأنها لم تعد تشعر بذاتها إلا في هذا العجز ومن ثم أغفلت ذكر الذات[(١)].

٢- قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ [النجم :٤٣-٤٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر :٩]، وقال تعالى في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ابنتي العبد الصالح: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ [القصص :٢٣-٢٤]

فالأفعال: (أضحك- أبكى- أمات- أحيا) في الآية الأولى متعدية قطعًا إلى مفعول، فالتقدير أضحك الإنسان وأبكاه، وأماته وأحياه، فحذف المفعول ونزل الفعل منزلة الفعل اللازم؛ لأن الغرض إثبات هذه الأفعال له جل شأنه دون اعتبار تعلقها بالمفعول، فهو عزَّ وجَلَّ بيده الإضحاك والإبكاء، والإماتة والإحياء.

والفعل يعلم في الآية الثانية متعدٍّ أيضًا إلى مفعول، ولكنه حذف؛ لأن الغرض إثبات الأفضلية للعالم على غير العالم على الإطلاق، فالعلم بالشيء أفضل من الجهل به أيًا كانت ماهية ذلك الشيء أو قيمته[(٢)].

أما الآية الثالثة فقد حذف فيها مفعول كل من الأفعال (يسقون- تذودان- نسقي- فسقى)، وهو الغنم والإبل التي وقعت عليها هذه الأفعال؛ وذلك لأنه لما كان الغرض لا يتعلق بذكر هذه المفاعيل المحذوفة، وكان التركيز إنما هو على الأحداث في ذاتها جاءت الأفعال مطلقة فتعاطف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع هاتين الفتاتين إنما كان

---

(١) «دراسات في علمي المعاني والبديع»، للدكتور حسن طبل ص(٢٨-٢٩)، ط: الزهراء.

(٢) ليس هذا على إطلاقه، فالعلم منه ما هو فرض عين ومنه ما هو فرض كفاية، ومنه ما هو مباح، ومنه ما هو حرام تعلمه كالسحر والتنجيم، وغير ذلك.

لمباشرتهما هذه الأفعال الشاقة على مثلهما، أما كون المسقي أو المذود غنمًا أو إبلًا فلم يكن له من أثر في هذا الموقف الإنساني النبيل.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [يونس:٢٥]، فالفعل يدعو في الآية الكريمة فعل متعدٍّ حذف مفعوله وذلك يفيد عمومية الدعوة، فهي تشمل الإنس والجن، مسلمهم وكافرهم، وأولهم وآخرهم، ومن ثم كان ذكر المفعول في قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾؛ لأن التعميم غير مراد في الفعل يهدي؛ لأن الهداية هداية خاصة يختص بها الله عَزَّ وجَلَّ الصالحين من عباده[1].

٣- قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى:١-٣]، يرى البلاغيون أن مفعول الفعل قلى هو ضمير المخاطب، وقد حذف لرعاية الفاصلة والتوافق الصوتي مع أواخر الآيات قبلها وبعدها، ولكن يضاف إلى ذلك أن الحذف هنا يحقق غرضًا معنويًا، فالآية تنفي التوديع والقلى أي الهجر والبغض، فالله عَزَّ وجَلَّ يطمئن نبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد فترة انقطاع الوحي بأنه لم يهجره أو يبغضه كما زعم ذلك أعداؤه من الكفار حين حدثت تلك الفترة، ولما كان هناك فارق دلالي بين الهجر والبغض إذ الهجر لا يكون إلا للحبيب، أما البغض فهو للخصوم والأعداء؛ لذلك جاءت الآية الكريمة مراعية ذلك حيث ذكرت ضميره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جانب نفي الهجر ﴿ مَا وَدَّعَكَ ﴾ ولم تذكره في جانب نفي البغض ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ إعلاءً لشأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يذكر ضميره في جانب المقت والكره وحتى لو كان هذا الجانب منفيًّا!![2]

٤- قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ ﴾ [فاطر:١٨]، المقصود هنا هو النفس الإنسانية المثقلة بالذنوب يقف صاحبها يوم القيامة مثقلًا

(١) السابق ص(٣٧-٣٩).

(٢) السابق، ص[٤١].

بذنوبه كما ورد في نصوص أخرى كقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، إن حذف الموصوف كلمة «نفس» مع إبقاء الصفة «مثقلة» وتأنيثها وإطلاقها بغير موصوف معين يورد على الخاطر صورة المرأة الحامل المثقلة بحملها كم تعاني منه، وإن تدع البشر جميعًا إلى حملها فضلًا عن أولي القربى، فهل يستطيع أحدٌ أن يحمل عنها حملها أو يخفف عنها شيئًا مما تعانيه من ذلك الحمل؟! إنه حملها الخاص الذي لا يملك أحدٌ على وجه الأرض كلها أن يحمل شيئًا منه إنما هي معاناتها الخاصة التي لا يستطيع أحدٌ أن يعاونها فيها فضلًا عن أن يخففها عنها، كم تبلغ هذه الصورة في تعميق المعنى المقصود الذي يرد أحيانًا بصيغ أخرى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وكم تؤثر هذه الصورة في نفس من ﴿كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ إنه الإعجاز(١).

٥- قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧-١٨]، جاء في آخر هذه الآية حذف لواو العطف، فالتقدير صمٌّ وبكمٌ وعميٌّ بدليل مجيء الواو في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وحذف الواو هنا يشير إلى تلازم هذه الصفات حتى لكأنها شيءٌ واحد أحاط بحواسهم، فهم لا يسمعون، لا يتكلمون، لا يبصرون(٢).

٦- قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، حذفت جملة الجواب والتقدير، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة

---

(١) لا يأتون بمثله ص(٢٨-٢٩)، ط: دار الشروق.

(٢) «الحذف البلاغي في القرآن»، ص [١٠٥]، ط: مكتبة القرآن.

ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم، فحذف الجواب ليذهب السامع مع كل مذهب، فلا يتصور مكروهًا إلا وهو داخل في حالهم، ولو ذكر جواب لاقتصر عليه دون غيره[1].

٧- أما في إثبات المسند وعدم حذفه فقد قال الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٣]، وقال الله تعالى: ﴿ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس:٧٨-٧٩].

ذُكر المسند في الآيتين (فعله-يحييها) وكان من الممكن حذفه لوقوعه فيها جوابًا عن استفهام، ولكنه ذكر لما يتعلق به من غرض بلاغي لا يحققه الحذف، فالآية الأولى جاءت على لسان إبراهيم عليه السلام وردًا على قومه حينما سألوه هذا السؤال التقريري: أأنت فعلت هذا؟ أي أأنت الذي كسر الأصنام؟ ففي تصدير الإجابة عن هذا بذكر المسند من التعريض بهم، والسخرية من ضلالهم ما لا يتحقق لو حذف، فذكر هذا الفعل المسند إلى كبير الأصنام يوحي بمدى ما هم عليه من ضلال إذ كيف يعبدون أصنامًا لا يستطيع كبيرها أن يفعل أو ينفع أو يضر؟!

أما الآية الثانية ففي ذكر المسند فيها (يحييها) تنبيه على ضلال السائل وتوبيخ له على جهله، فقد استبعد إحياء العظام البالية وجهل أو تجاهل أن إحياءها ليس ببعيد على من خلقها أول مرة من عدم.

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

والذكر الذي يعنيه البلاغيون في هذه الآية هو ذكر الاسم الموصول الواقع صفة للقلوب في آخرها ﴿ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾، فتلك الصفة كان لا يمكن الاستغناء عنها

(١) السابق ص [١١٣].

لولا ما يتعلق بها من غرض بلاغي لا يتحقق بدونها، فمن المعلوم أن القلوب لا تكون إلا في الصدور، ولكن في ذكر ﴿ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾، هنا تأكيدًا وتقريرًا للمعنى المسوقة من أجله الآية وهو نسبة العمى إلى القلوب لا إلى الأبصار التي من المعهود نسبته إليها وتأكيد المعنى وتقريره بهذا الذكر يتآزر مع ذلك الاستفهام التوبيخي الذي صدرت به الآية ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، فهذا وذاك يؤكدان أن الإبصار الحقيقي ليس مجرد رؤية العين للمبصرات، بل هو ما يتبع تلك الرؤية من اعتبار وتفكر يستتبعان استنارة البصائر وهداية القلوب(١).

٨- حذف الحرف:

منه قوله تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ﴾ [النساء:١٧٦]، أي لئلا تضلوا فحذفت لا أي لا تميد بكم، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص:٧٩]، والتقدير وقال الذين يريدون الحياة الدنيا، فحذفت الواو لتتوفر العناية على بيان فساد قول هؤلاء وكأنهم قالوه دون روية أو تفكير(٢).

ثانيًا- البلاغة في التكرار(٣):

١- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]، كرَّر إياك وقدَّمه، ولم يقتصر على ذكره مرة واحدة، كما اقتصر على ذكر أحد المفعولين في آيات كثيرة منها: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا ﴾ [الضحى:٣] أي ما قلاك، وكذلك الآيات التي بعدها معناها «فآواك-فهداك-فأغناك»؛ لأن في التقديم فائدة وهي قطع الاشتراك ولو حذف لم يدل

---

(١) «دراسات في علمي المعاني والبديع» (٤٣-٤٤)، ط: مكتبة الزهراء بالقاهرة.

(٢) «الحذف البلاغي في القرآن الكريم» (١٠٥-١٠٧)، ط: مكتبة القرآن.

(٣) مستفاد من كتاب «أسرار التكرار في القرآن» لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، ط. دار الفضيلة، ولا يأتون بمثله، ط: دار الشروق.

على التقديم؛ لأنك لو قلت إياك نعبد ونستعين لم يظهر هل التقدير إياك نعبد وإياك نستعين أم إياك نعبد ونستعينك، ولذلك كررت، فالفرق بينهما أن معنى: «إياك نعبد وإياك نستعين» لا نعبد غيرك ولا نستعين بسواك، ومعنى: «إياك نعبد ونستعين» لا نعبد غيرك ونستعين بك وبسواك، فكرَّر إياك لقطع الاشتراك في أي من الفعلين.

٢-قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفَاتِحَة:٦]، كرر الصراط وذلك أن الصراط هو المكان المهيَّأ للسلوك، فذكر في الأولى المكان ولم يذكر السالكين فأعاده مع ذكرهم، فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي الذي يسلكه النبيون والمؤمنون، ولهذا كرر أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ [الشُّورَىٰ:٥٢-٥٣]؛ لأنه ذكر المكان المهيَّأ فأعاده مع ذكره، فقال: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ أي الذي هيَّأه للسالكين.

٣- قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البَقَرَة:٦٢]، وقال تعالى في سورة الحج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [الحَجّ:١٧].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾

[المَائِدَة:٦٩]

تأمل المعاني التالية:

إن النصارى مقدمون على الصائبين في الرتبة؛ لأنهم أهل كتاب فقدمهم في البقرة، والصائبون مقدمون على النصارى في الزمان؛ لأنهم كانوا قبلهم فقدمهم في

الحج، وراعى في المائدة بين المعنيين وقدمهم في اللفظ وأخرهم في التقدير؛ لأن تقديره والصابئون كذلك.

وقيل: إن ترتيب الطوائف في المائدة جامع للترتيب بالكتب وبالزمان ورفعها بين المنصوبات يدل على نية تأخيرهم وترتيبهم في البقرة بالكتب السماوية فأخر الصابئين؛ لأنهم لا كتاب لهم، وترتيبهم في الحج بالأزمنة فقدمهم؛ لأنهم قبل النصارى، ولم يقصد الترتيب بالكتب؛ لأن أكثر المذكورين ممن لا كتب لهم.

وهذا المعنى اللغوي منه قول الشاعر:

فإن يك أمس بالمدينة رحله ... فإني وقيَّارٌ بها لغريبُ

وقيَّار: اسم فرس أو رجل أو جمل[1] أراد إني لغريب وقيار كذلك.

٤- قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩].

إن التنويع في عبارات الآيات واضح بصورة تلفت النظر، ففي الآية الأولى لم يقل «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي» كما هو المعتاد في الآيات الأخرى، ولكن قال: «مخرج الميت من الحي»، وهذا تنويع، وفي الآية الثانية لم يقل فالق الإصباح وجاعل الليل سكنًا كما هو المعتاد في عطف الاسم على الاسم، ولكن

---

(١) «لسان العرب» (٥/ ١٢٤).

قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾، وهذا تنويع، وفي الآية الرابعة لم يقل هو الذي أنشأكم من نفس واحدة فجعل لها مستقرًا ومستودعًا كما يتوقع أن يكون السياق العادي، فجرى العطف بين فعل وفعل وإنما حذف الفعل الثاني وجئ بمعموله مرفوعًا كأنه نائب فاعل فجُعِلَ لها مستقر ومستودع، وهذا تنويع.

وفي الآية الخامسة تكرر الفعل: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ في الزمن الماضي وجاء بعده المضارع «نخرج»، وفي هذا تنويع ثم تجاور في العبارة اسمان مرفوعان بالضمة: ﴿قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ واسمان أحدهما منصوب بالكسرة والثاني مجرور بالكسرة، ﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾ واسمان منصوبان بالفتحة، ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾، وأخيرًا جاءت كلمة في صيغتين مختلفتين ﴿مُشۡتَبِهٗا﴾ ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖ﴾ وذلك كله تنويع، وذلك من الإعجاز.

٥- كلمة ﴿تَبَارَكَ﴾ هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله عَزَّ وجَلَّ، ولا تستعمل إلا باللفظ الماضي، وقد وردت في سورة الفرقان في ثلاثة مواضع في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان:١٠]، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ [الفرقان:٦١]، تعظيمًا لذكر الله، وخصت هذه المواضع بالذكر؛ لأن ما بعدها عظائم.

(أ) ذكر الفرقان وهو القرآن المشتمل على معاني جميع كتب الله.

(ب) ذكر النبي محمد ﷺ وهو أعظم الأنبياء والرسل والخلق جميعًا.

(جـ) ذكر للبروج والسيارات والشمس والقمر والليل والنهار ومثلها: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر:٦٤]، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك:١].

٦- قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تكررت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن، ثمانية منها ذكرت عقيب آيات، فمنها تعداد عجائب خلق الله وبدائع

صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم، وحسن ذكر الآلاء عقيبها؛ لأن في صرفها ودفعها نعمًا توازي النعم المذكورة، أو لأنها حلت بالأعداء وذلك يعد أكبر النعماء.

وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنان وأهلها على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الثمانيتين من الله ووقاه السبعة السابقة.

٧- قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فَاطِر: ٢٧-٢٨]، تجد في الآية لفظًا واحدًا تكرر لكن تنوع إيراده بصيغ مختلفة ما بين التذكير والتأنيث والرفع والنصب، تأمل في الفرق بين هذه الألفاظ:

﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾.

﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا ﴾.

﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾.

٨- قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البَقَرَة: ٤٩].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٦].

الآية الأولى خطاب من الله تعالى إلى بني إسرائيل يذكرهم بنعمه عليهم ويخص بالتذكير تلك النعمة الكبرى وهي تنجيتهم من آل فرعون الذين يسومونهم سوء

العذاب، بالإضافة إلى التغيير في صيغة الفعل (نجيناكم-أنجاكم) أحدهما متعديًا بالتضعيف والآخر متعدٍّ بالهمزة وأحدهما بضمير المتكلم «نجيناكم»، والثاني بضمير الغائب «أنجاكم»، ولكن انظر إلى الجزء الخاص بالعذاب الذي كان يوقعه آل فرعون ببني إسرائيل، إذ إنَّ فيه اختلافًا بين الآيتين يحدث تغييرًا في الصورة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، والآية الأخرى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ إن الفارق بين العبارتين حرف واحد هو الواو التي جاءت في الآية الثانية قبل كلمة يذبحون، ولكن انظر كم أحدث الحرف الواحد من الاختلاف في الصورتين؟

في الصورة الأولى ينحصر العذاب في قتل الأولاد واستحياء النساء، وفي الثانية يصبح هذا الأمر واحدًا فقط من ألوان العذاب التي تصب على بني إسرائيل وإن كان السياق يوحي من أبرزها وأشدها وأخبثها إذ أجمل: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وفصَّل قتل الأولاد واستحياء النساء، إنه تشابه يؤدي إلى التنويع الذي يشبه حال ثمار الجنة الموصوفة في القرآن.

٩- قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

من أكثر الأمور تكرارًا في القرآن قصص الأنبياء مع أقوالهم، وصور العذاب والنعيم في اليوم الآخر وهما من أكثر الموضوعات في القرآن ورودًا، ولكن بشكل مختلف في كل مرة وذلك في ذاته لونٌ من الإعجاز لا يرد بهذه الصورة في كلام البشر أصحاب القدرة القاصرة في البيان والتعبير، وهذا وصف لازم للمخلوق.

وإليك هذا النموذج من تكرار قصة نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن

قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ
وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ
بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ
لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ
وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾
وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ
جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ
ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ
أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي
وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا
تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ
إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن
تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ
عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ
وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا
بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ
نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ
جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ

فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٢٥-٤٤].

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾

[الأعراف: ٥٩-٦٤].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٢٢]، إنها قصة واحدة قصة نوح مع قومه وجدالهم وتكذيبهم له وإغراقهم في النهاية ونجاة المؤمنين، إن اختلاف الصورة من طرق السرد المختلفة هو في ذاته جمالٌ بلاغي؛ لأنه يعطي في كل مرة جوًا مختلفًا للقصة في نفس القارئ

والسامع، فكأنها قصة جديدة مع أن الأشخاص هم هم والوقائع هي هي في النهاية، ولكن الأروع بعد ذلك أن تدرك مع الاختلاف سر الاختلاف.

إن القصص القرآني لا يراد لمجرد القصص وإنما يؤدي هدفًا دعويًا وتربويًا عظيمًا من خلال السرد المتناسق المؤثر، وإذا كانت الأهداف الدعوية كثيرة ومتعددة فإن القصص القرآني يأتي في صور متعددة في كل مرة متلائمة مع الهدف المقصود من إيراد القصة.

الهدف من إيراد القصة في سورة هود كما هو مذكور في سياق الصورة ثلاثة أمور: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

فهي إنذار للناس لكي يحذروا عذاب الآخرة ويتقوه، وهي تثبيت لقلب الرسول ﷺ، وهي موعظة وذكرى للمؤمنين، وكان من المناسب لهذه الأهداف الثلاثة تطويل العرض والإكثار من ذكر التفاصيل فيما وقع بين كل رسول وقومه وكان ذلك مناسبًا بصفة خاصة للهدف المتعلق بتثبيت قلب الرسول ﷺ وهو يلقي العنت من قومه من تكذيبهم وجدلهم، فها هو ذا رسول سابق من رسل الله قد لقي مثل هذا العنت وصبر عليه ثم نجَّاه الله وقضى على الذين كذبوه.

أما الهدف في سورة الأعراف - كما جاء في سياق السورة - فهو هذا البيان: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ

بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥]، فالتركيز هنا هو على الأخذ المباغت وليس على ما جرى من أحداث بين الرسول وقومه فلا يركز عليها في السياق.

أما في سورة الشعراء فهو في إيراد القصة كما هو مذكور في السورة أن الكفار يطالبون الرسول ﷺ بآية تجعلهم يصدقون بأنه رسول من عند الله، فجاء التركيز في القصة على الآية وهي إهلاك الظالمين وتنجية المؤمنين وليس على تفاصيل الأحداث كما كان الحال في سورة هود.

وهكذا نرى وفاء القصة في كل مرة بالهدف من إيرادها وتتنوع الصورة في كل مرة بما يناسب سياق العرض.

١٠- قال الله تعالى عن نبيه موسى ﷺ في سورة النمل: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل: ٧]، وقال في سورة طه في هذه القصة: ﴿ لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ١٠]

وقال في موضع ثالث: ﴿ لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص: ٢٩]، وانظر ترى أنه سبحانه وتعالى قد تصرف في وجوه وأتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك ليكون أبلغ في تعجيزهم وأظهر للحجة عليهم، وكل كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها تامة في معناها[1].

١١- قال تعالى: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [طه: ٤٧]، إن تثنية لفظة

(١) «إعجاز القرآن» للباقلاني، ص [١٣٧]، ط: مكتبة مصر بالقاهرة.

رسول الله في آية طه وإفرادها في آية الشعراء يرجع- والله أعلم بمراده- إلى اختلاف السياق في كل من السورتين عنه في الأخرى، فكل من الآيتين الكريمتين قد سبقت في سياقها بإعلان الخوف من بطش فرعون وطغيانه غير أن هذا الإعلان جاء في سورة طه على لسان الرسولين موسى وهارون عليهما السلام، ومن ثم جاءت لفظة رسول مثناة لبعث الطمأنينة والثقة في قلبيهما، واقتلاع جذور الخوف من نفسيهما معًا: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه: ٤٥-٤٧]، أما في سورة الشعراء فقد ورد الإخبار عن الخوف من فرعون وآله على لسان موسى وحده ومن ثم كان إفراد في تلك السورة تهدئة لروعه وتطمينًا لمخاوفه عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

[الشعراء: ١٢-١٦]

ونلفت النظر في هذا الصدد إلى أن تكرار بعض القصص في القرآن مع مجيء القصة في كل مرة بطريقة مختلفة ولون جديد وأسلوب فريد عجيب نوع عظيم من الإعجاز التكراري في هذا القرآن المجيد، ومن فوائد تكرار القصص في القرآن ما يلي:

١- بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها.

٢- قوة الإعجاز فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي.

٣- تثبيت قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

٤- الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفوس فما تكرر تقرر.

٥- التذكير والوعظ والاعتبار.

٦- استغلال المناسبات لإيراد الشاهد التاريخي عند المناسبة الداعية إلى ذكره مع إبراز ما يتصل بالمناسبة منه ومطابقة مقتضى الحال في كل مرة مع التصريف والتنويع في الأساليب لتكون العظة أكثر تأدية لوظيفتها.

٧- تعميم النفع.

٨- الإفهام[١].

ثالثًا- بلاغة الالتفات (*):

ومعنى الالتفات تغيُّر وتحوُّل غير متوقع في مسار التعبير كأن يكون الخطاب في الكلام للغائب ثم يتحول فجأة إلى المتكلم، وهذا كقول الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فُصِّلَتۡ: ١٢].

ومن أعجب ما اتفق في ذلك أن المتأخرين من ناظمي البديعيات كعز الدين الموصلي وابن حجة الحموي وغيرهما عدوا تمام الفضيلة في عملهم أن ينظموا البيت على النوع من أنواع البديع ثم يذكروا اسم النوع في البيت بالتورية، وهذا بعينه استخرجه الشهاب الخفاجي من القرآن في مسألة الالتفات وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ [هُودٖ: ٨١]؛ لأن السياق يحتمل أن يكون: (ولا يلتفت منهم)، فعدل عن الغيبة إلى الخطاب[٢].

ومن صور بلاغة الالتفات ما يلي:

١- من ذلك إفراد السمع وجمع الأبصار والقلوب في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البَقَرَة: ٧].

---

(١) «البرهان» للزركشي (٣/ ٢٠).

(*) «مستفاد من دراسات في علمي المعاني والبديع وإعجاز القرآن» للباقلاني والرافعي.

(٢) «إعجاز القرآن» للرافعي (٢٥٧-٢٥٨).

و قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، إن إفراد السمع وجمع الأبصار في هذه الآيات لعله يشير -والله أعلم بمراده- إلى توحد وسيلة الإدراك في حاسة السمع وتعددها في حاسة البصر، فلقد أثبت علما التشريح ووظائف الأعضاء أن مركز الحس السمعي في المخ يمده عصب دماغي واحد هو ما يسمى «العصب الثامن» أما الحِسُّ البصري فإنه يرتكز على أربعة أعصاب تتضافر معًا في إحداثه وهي العصبان (الرابع والسادس) المسئولان معًا عن حركة العين في مجال الحقل البصري ثم «العصب الثالث» المسئول عن حركة العين في جزءٍ من هذا الحقل، وعن التحكم في دخول الضوء العين وضبط الحدقة وشكل العدسة حسب نوع الإبصار، ثم أخيرًا «العصب الثاني» المسئول عن توصيل الصور الساقطة على الشبكية إلى مراكز الإبصار العليا في مؤخرة الدماغ، فهذا فيما نظن والله أعلم هو سر إفراد السمع وجمع الأبصار في سياقاتهما القرآنية التي لا تدور كما رأينا حول ما يسمعه الإنسان أو يبصره، بل على حقيقة إدراكه السمعي أو البصري ذاتها.

ولعل من المناسب هنا أن نبين لماذا أوثرت لفظة الختم مع السمع ولفظة الغشاوة مع الأبصار في آية البقرة السابقة مع أن كل من الكلمتين تؤدي معنى تعطل الحاسة، فما سر هذا الاختيار إذن؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نشير إلى أن الإدراك البصري هو نتيجة مباشرة لانعكاس صور المرئيات على شبكية العين من خلال العدسة، فإذا كان هناك خلل بالعدسة أو حائل خارجي يحول دون ذلك الانعكاس توقف الإدراك البصري تمامًا، أما الإدراك السمعي فهو على العكس من ذلك إذ هو إدراك داخلي أي أنه ليس هناك

سبب خارجي يحول دونه، بل لقد أثبت علم الطب أن قفل الأذن الخارجية أو فقدانها ليس شرطًا للصمم وأن عظام الجمجمة وغيرها من الموصلات قد تنوب عن الأذن في نقل الموجات الصوتية إلى العصب السمعي لعل ذلك والله أعلم هو سر إيثار الختم مع السمع والغشاوة مع الأبصار في آية البقرة، ولعل مما يؤيد ذلك على البصر عن الدلالة على تعطل الحاستين في قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٣] إذ لو كان الصمم هو تعطل الأذن لقيل فأصمَّ آذانهم كما قيل وأعمى أبصارهم(١).

وهناك ملاحظة ثالثة في هذا المجال وهي أن غالب الآيات التي اجتمع فيها السمع مع البصر قدم السمع على البصر حيث اجتمع السمع مع البصر في تسعة عشر موضعًا في القرآن قدم السمع في أربعة عشر موضعًا وأخر في خمس، فلم؟

الجواب من وجوه:

١- أن السمع خُلق قبل البصر في مرحلة تكوين أعضاء الجنين، ويشهد بذلك الأطباء وعلماء الأجنة.

٢- أن السمع أشرف وأوسع مجالًا من البصر؛ لأن به تثبت النبوات وأخبار الله تعالى وأوامره ونواهيه بخلاف البصر فهو قاصر عن السمع(٢).

٣- ومن مواطن الالتفات من المفرد إلى الجمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١-٨٢]، في الآية الثانية جاء اسم يكون العائد على الآلهة ضمير جمع، ثم جاء الخبر عنه مفردًا «ضدًا» عدولًا عن أضدادًا التي يقتضيها ظاهر السياق وهو عدول

(١) «دراسات في علمي المعاني والبديع» (٨٣-٨٤).

(٢) «الموسوعة الذهبية» (٥٥٨-٥٥٩).

يحقق غايتين الأولى: توازي فاصلة الآية الكريمة مع فواصل الآيات السابقة عليها واللاحقة لها في السورة «مدًّا-فردًا-عزًا-أزًّا-ضدًا».

والثانية هي الدلالة على توحُّد موقف الآلهة يوم القيامة معاداة هؤلاء الكفار الذين عبدوهم من دون الخالق أو أشركوهم في عبادته عَزَّ وجَلَّ فتوحيد الضد-كما ذكر المفسرون- لتوحد المعنى الذي تدور عليه مضادة هؤلاء الآلهة للكفار إذ إنهم يتفقون على هذه المضادة فيكونون كالشيء الواحد.

٤- قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢]، كان من المتوقع أن يقال يرضوهما ولتوجيه ذلك عند البلاغيين والمفسرين أقوال لعل أرجحها قول من قال إنه يعود على الله ورسوله وإنما أفرد الضمير لتوحُّد الرضاءين وإشعارًا بأن إرضاءه ﷺ هو في الوقت ذاته إرضاء للخالق عَزَّ وجَلَّ، إذ إن في ذلك دعم لموقفه ﷺ وسلوان له فيما تحمله من أذى هؤلاء المنافقين فشأن الإرضاء في ذلك شأن الطاعة التي وحدها الله عَزَّ وجَلَّ في قوله: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

٥- قال الله تعلى في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [النور:٤٨]، وقال سبحانه بعد ذلك بآيتين: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

تأمل تجد أن الفعل يحكم أسند إلى ضمير الإفراد المستتر «هو» لا إلى ضمير التثنية «ليحكما» كما يقتضي ظاهر السياق وفي ذلك -والله أعلم- دلالة على توحد الحكم وإشعارٌ بأن ما ينطق به الرسول هو بعينه حكم الله، وأن هذا الذي يدعي الناس إلى الاحتكام إليه فيعرض عنه المنافقون ويذعن له المؤمنون إنما هو منهج واحد شرعه الحكيم الخبير وينفذه ويحكم بمقتضاه رسوله الأمين ﷺ.

٦- قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧].

كان ظاهر السياق أن يكون فتشقيا لكن عُدِل إلى فتشقى، فلماذا كان هذا العدول؟

لعل أوجه الأقوال في ذلك أن المراد بالشقاء هنا التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة ذلك لأن الأكل أو القوت كان بمثابة المحور الأساسي في قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو يمثل إحدى النعم التي امتن الله بها على آدم بتهيئتها له في الجنة قبل هبوطهما إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٨-١١٩]، وهو من جهة أخرى مدار الأمر والنهي في تلك القصة: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥]، وهو من جهة ثالثة سبب حرمان آدم وزوجه من الجنة: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ [طه: ١٢١]، ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٣٦]، فكأن هذه الأكلة كانت بمثابة الحد الفاصل بين تنعمهما معًا بلذائذ الطعام في الجنة وشقاء آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحده في سبيل الكدح من أجله بعد الهبوط منها.

وجدير بالذكر هنا قول ابن القيم في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨-١١٩]، يقول: تأمل كيف قابل الجوع بالعري، والظمأ بالضحى، والواقف مع القالب ربما يخيل إليه أن الجوع يقابل بالظمأ والعري بالضحى، والداخل إلى بلد الفقه عن الله يرى هذا الكلام في أعلى الفصاحة والجلالة؛ لأن الجوع ألم الباطن والعري ألم الظاهر، فهما متناسبان في المعنى، وكذلك الظمأ مع الضحى؛ لأن الظمأ موجب لحرارة الباطن، والضحى موجب لحرارة الظاهر فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهرًا وباطنًا[1].

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٣٣٠)، «التفسير القيم» [٢٩٤].

٧- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات:٩].

في هذه الآية تحول عن التثنية إلى الجمع في ﴿طَآئِفَتَانِ - ٱقْتَتَلُوا۟﴾، ثم تحول إلى التثنية مرة أخرى ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، وفي هذا- والله أعلم- إبراز للبون الشاسع بين داعي الصلح ودواعي الاقتتال أي بين توحُّد الكلمة -في كل من الطائفتين- في حال الصلح وتشتت الآراء وتطاير شرر النفوس وانقسام الصف الواحد -في كل من الطائفتين- إلى صفوف في حال الاقتتال قال الرازي: عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة وكل أحدٍ برأسه يكون فاعلًا فعلًا فقال اقتتلوا وعند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة وإلا لم يتحقق الصلح فقال بينهما لكون الطائفين حينئذٍ كنفسين[1]، قلت: ولعل ذلك يعني أن الاقتتال يكون بين الأفراد والصلح يكون بين الطائفتين كالجسدين المنفصلين، والله تعالى أعلم.

٧- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن:١٠]، تجد الفعل مبني للمجهول مع إرادة الشر وللمعلوم مع إرادة الخير، وفي هذا إشعارٌ بأن هؤلاء الجن الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم قد عزفت ألسنتهم عن ذكر الخالق عَزَّ وجَلَّ في جانب إرادة الشر، ولقد أحسنوا الأدب في ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل، وإبرازهم لاسمه عَزَّ وجَلَّ عند إرادة الخير والشر فجمعوا بين العقيدة الصحيحة والآداب المليحة.

رابعًا- استعمال اللفظ الواحد لمعانٍ مختلفة:

من وجوه بلاغة القرآن أن يستعمل لفظ واحد لمعانٍ متعددة في سياقات مختلفة، وهذه أدلة توضح ذلك وتبينه وتوقفك على جانب رائع وعلم نافع من بلاغة القرآن العظيمة[2].

---

(١) «التفسير الكبير» للفخر الرازي (٢٨/ ١٢٧-١٢٨).

(٢) «مستفاد من تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة، ط: دار الكتب العلمية.

١ـ القضاء:

أصل قضى حتم كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ [الزمر:٤٢]، أي حتمه عليها.

ثم يصير الحتم بمعانٍ كقوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]. أي أمر.

وكقوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الإسراء:٤] أي أعلمناهم، وقوله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ [فصلت:١٢] أي صنعهن وخلقهن، وقوله: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه:٧٢] أي فاصنع ما أنت صانع، ومثله قوله: ﴿ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس:٧١] أي اعلموا ما أنتم عاملون ولا تنظرون، وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد.

٢ـ الأمة:

أصل الأمة الصنف من الناس والجماعة كقوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي صنفًا واحدًا في الضلال: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة:٢١٣]، وكقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام:٣٨] أي أصناف.

ويستعمل لفظ الأُمَّة بمعنى الحين والمدة من الزمن كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف:٤٥][1]، وكقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ [هود:٨] أي سنين معدودة.

والأمة تعني الإمام والرباني كقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ [النحل:١٢٠] أي إمامًا يقتدى به الناس؛ لأنه ومن اتبعه أمة فسمِّي أمة؛ لأنه سبب الاجتماع.

(١) أي بعد فترة ومدة.

وقد يجوز أن يكون سمي أمة؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه قد اجتمع فيه من صفات الخير ما يكون مثله في أمة.

ولفظ الأمة يستعمل في القرآن بمعنى الدين والملَّة كما قال الله جَلَّ جلاله: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٢٢] أي على دين.

والأصل أن لفظ أمة يستعمل للقوم يجتمعون على دين واحد، ولهذا قيل للمسلمين أمة محمد ﷺ؛ لأنهم على أمرٍ واحد، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

٣- العهد:

الأمان عهد كما قال تعالى: ﴿ فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة: ٤]، واليمين عهد، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١]، وكذلك الوصية عهد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [يس: ٦٠]، والعهد يعني الميثاق ومنه قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي لا ينال ما وعدتك من الإمامة الظالمين من ذريتك والوعد من الله ميثاق.

٤- الضلال:

الضلال هو الحيرة والانحراف عن الحق يقال ضل عن الحق كما يقال ضل عن الطريق، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧].

وكذلك الضلال يستعمل لفظه في القرآن بمعنى النسيان، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وتستعمل لفظة الضلال في لغة القرآن بمعنى الهلكة والبطلان كقوله جَلَّ جلاله: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾ [السجدة: ١٠] أي لحقنا بالتراب يقال أضل القوم ميتهم أي قبروه، فالضلال في الأرض هو الغياب فيها.

٥- الإمام:

تطلق كلمة الإمام على من يؤتم به كما قال الله عن خليله إبراهيم: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤][1]، أي يؤتم بك ويُقْتَدَى بسنتك.

كذلك تطلق على الكتاب الذي جمعت فيه الأعمال وأحصيت فيه كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾ [يس: ١٢]، يعني كتابًا أو اللوح المحفوظ، وقال تعالى: ﴿ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡ ﴾ [الإسراء: ٧١]، أي بكتابهم الذي جمعت فيه أعمالهم في الدنيا.

ولفظة إمام تطلق على الطريق؛ لأن المسافر يأتم به ويستدل له على وجهته في سفره، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾ [الحجر: ٧٩] أي بطريق واضح.

٦- الرجز:

تطلق هذه الكلمة على العذاب كما قال الله تعالى حكاية عن قوم فرعون: ﴿ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤] أي العذاب.

ويطلق الرجز على كيد الشيطان؛ لأنه سبب العذاب إذا استجاب المرء له ووقع فيه واستمر عليه كما قال تعالى: ﴿ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ [الأنفال: ١١].

---

(١) قلت: وفي هذه الآية وجه من الإعجاز الإخباري حيث بقي إبراهيم إمامًا للناس حتى يومنا هذا لذلك كذب الله زعم اليهود والنصارى بنسبتهم إليه فقال: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا ﴾ [آل عمران: ٦٧].

٧- الفتنة:

يطلق لفظ الفتنة على الاختبار يقال فتنت الذهب في النار، أي أدخلته إليها لتعلم جودته من رداءته كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣] أي اختبرناهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أي جوابهم لأنهم حين سئلوا اختبر ما عندهم بالسؤال فلم يكن عن ذلك الاختبار إلا هذا القول.

ويطلق لفظ الفتنة على التعذيب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠] أي عذبوهم بالنار، وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي يعذبون، وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] أي جعل عذاب الناس وأذاهم كعذاب الله.

ويطلق لفظ الفتنة على الصد والاستزلال قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩] أي يصدوك ويستذلوك، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣].

ويطلق لفظ الفتنة على الإشراك والكفر والإثم كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي شرك، وقال تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩] أي في الإثم، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣] أي كفر وإثم.

ويطلق لفظ الفتنة ويراد به العبرة كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]، وفي موضع آخر: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الممتحنة: ٥] أي يعتبرون أمرهم بأمرنا، فإذا رأونا في ضر وبلاء ورأوا أنفسهم في غبطة ورخاء ظنوا أنهم على حق ونحن على باطل.

٨- الفرح:

لفظة الفرح تطلق في القرآن ويراد بها المسرة كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ [يونس: ٢٢] أي سُرُّوا.

وتطلق لفظة الفرح ويراد بها الرضى لأنه يكون عن مسرَّة، قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] أي رضوان، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣] أي رضوا.

والفرح يطلق على البطر والأشر؛ لأن ذلك عن إفراط السرور، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [غافر: ٧٥] وقد تبدل الحاء في هذا المعنى هاءً فيقال فرهٌ أي فرحٌ وبطر، قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩] أي أشرين بطرين والهاء تبدل من الحاء لقرب مخرجهما، تقول مدحته ومدهته بمعنى واحد.

٩- المثل:

تأتي هذه اللفظة في القرآن بمعنى الشبه كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] أي شبه الذين كفروا شبه العنكبوت، وتأتي كلمة المثل بمعنى العبرة كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦] أي عبرة لمن بعدهم، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩] أي عبرة.

وتأتي كلمة مثل بمعنى الصورة والصفة كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ﴾ [محمد: ١٥] أي صفة الجنة.

١٠- الزوج:

تأتي بمعنى الصنف كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٦]، يعني الأصناف، وقال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ

ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [الأنعام: ١٤٣] أي ثمانية أصناف، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٧] أي من كل صنف حسن

وتأتي الزوج بمعنى القرين، كما قال تعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢] أي قرناءهم، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧] أي قرنت النفوس بعضها ببعض.

١١- النسيان:

تأتي كلمة النسيان ويراد بها ضد الحفظ كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ ﴾ [الكهف: ٧٣].

وتأتي بمعنى الترك كقوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ ﴾ أي بما تركتم الإيمان بلقاء هذا اليوم ﴿ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾ [السجدة: ١٤] أي تركناكم، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧] أي لا تتركوا ذلك.

١٢- السعي:

تأتي كلمة السعي ويراد بها الإسراع في المشي كما قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ [القصص: ٢٠] أي يسرع في مشية وهو العدو أيضًا، ويأتي السعي بمعنى المشي كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] يعني المشي، ويقال المعاونة له على أمره.

ويأتي السعي بمعنى العمل كما قال تعالى: ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ [الإسراء: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [الليل: ٤] أي: عملكم، لشتى: أي مختلف.

١٣- الحساب:

تأتي هذه الكلمة ويراد بها الشيء الكثير، كما قال تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦] أي كثيرًا يقال أحسبتُ فلانًا أي أعطيته ما يحسبه أي يكفيه.

وتأتي بمعنى الجزاء كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٦] أي جزاءهم، وقال تعالى: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١٣]؛ لأن الجزاء بالحساب.

وتأتي الحساب بمعنى المحاسبة كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]

١٤- الأمر:

ترد كلمة الأمر في القرآن بمعنى القضاء كما قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]، أي يقضي القضاء، وتأتي ويراد بها الدِّين كما قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] أمرهم أي دينهم، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤٨].

وتأتي كلمة الأمر بمعنى القول كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ [الكهف: ٢١] يعني قولهم.

وتأتي لفظة الأمر ويراد بها العذاب كما قال الملك الوهاب في محكم الكتاب: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] أي وجب العذاب، وقال تعالى: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾.

وتأتي كلمة الأمر بمعنى القيامة، قال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤] أي القيامة أو الموت.

ويطلق الأمر على الوحي قال تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

وتأتي كلمة الأمر بمعنى الذنب قال تعالى: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ [الطلاق: ٩].

ويكنى عن كل شيءٍ بالأمر؛ لأن كل شيء يكون فإنما يكون بأمر الله؛ لذلك سميت الأشياء أمورًا؛ لأن الأمر سببها، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

خامسًا- بلاغة الكلمات والألفاظ القرآنية [(١)]:

هذه أمثلة مختارة ونماذج منتقاة تشير إلى البلاغة المعجزة والدقة الحكيمة في استعمال الكلمات ووضع كل كلمة في موضعها اللائق بها والمناسب لها بحيث لو ترعت اللفظة من مكانًا ووضع غيرها لاختل المعنى وفسد التعبير، ومن شواهد ذلك ما يلي:

١- كلمة «الضر-ضره-ضرٍّ».

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢]

جاءت كلمة الضر في أول الآية معرفة بالألف واللام، ثم جاءت مضافة تبرز المفارقة بين حال الإنسان وقت الشدة وحاله بعد زوالها، فبينما تجده في الحال الأول متوجهًا إلى خالقه عَزَّ وجَلَّ ملحًا في دعائه متوسلًا إليه في كل حال من أحواله-لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا- نجده في الحال الثانية سابحًا في غمار الغفلة أو الجحود، وجاء التحول عن تعريف الضر إلى تنكيره في الآية مؤديًا دوره في تجسيد المفارق إذ في تعريفه حال مسِّه للإنسان إشعار بأنه- وإن هان أمره وقل خطره- يستقطب وعيه ويستحوذ على تفكيره ويصبح شغله الشاغل، أما تنكيره في الحال الأخرى ففيه إيحاء بأنه ما إن يكشف الله عَزَّ

(١) «مستفاد من الموسوعة الذهبية»، و«دراسات في علمي المعاني والبديع»، و«محاضرات في علم المعاني» لسعد عبد العظيم محمد. كلية دار العلوم بالقاهرة، و«كتاب القرآن والترادف اللغوي» لسيد خضر، ط: دار بلال بكفر الشيخ.

وجَلّ ضر الإنسان حتى يتوارى ذلك الضر بعيدًا عن محور اهتمامه وبؤرة شعوره ويصبح في هامش ذاكرته شيئًا أقرب إلى المجهول.

٢- قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: ٢٢].

هذه اللفظة لا يسد غيرها مسدَّها فإن هذه اللفظة إنما أوثرت كي تناسب بغرابتها غرابة تلك القسمة الظالمة الجائرة التي تصفها، فمعلومةٌ أن هؤلاء الذين ضلوا طريق التوحيد واتخذوا من اللات والعزى ومناة آلهة كانوا يؤثرون الذكور ويحقرون الإناث ومن ثم كان من الغريب حقًا أنهم- وقد ميزوا بين الجنسين على هذا النحو- ألا يتصوروا تلك الآلهة المزعومة التي أشركوها مع الله في العبادة إلا إناثًا وألا يسموها إلا تسمية الإناث.

٣- «السبيلا-السبيل»:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وفي نفس السورة يقول الله تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤].

هذه الآية الرابعة من سورة الأحزاب بدون ذكر الألف مع إمكان إلحاقها بها لاسيما وهي بين آيات منتهية بالألف:«وكيلًا» هذه قبلها وبعدها آية منتهية «رحيمًا»، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن التناسب الشكلي بين الفواصل ليس غاية تقصد لذاتها في البيان القرآني.

وفاعل الهداية في الآية الرابعة من سورة الأحزاب هو الضمير العائد على الخالق سبحانه، وفاعل الإضلال في الآية السابعة والستين هو الضمير العائد على السادة والكبراء الذين أوردوا أتباعهم موارد التهكلة، ولعلنا بذلك ندرك التناسب المعنوي بين كل من الفاصلتين، فالآية الأولى فيها تناسب بين قصر الفاصلة وطريق

الهداية القاصد، والآية الثانية فيها تناسب بين طول الفاصلة وطريق الضلال الملتوي الذي ينحرف بسالكيه بعيدًا عن السبيل (طريق الحق) ويجر أهله إلى التخبط في بيداء الكفر ومتاهات العمى، هذا فضلًا عن مناسبة هذه الفاصلة الأخيرة «السبيلا» لموقف الندم الذي وردت في سياق تصويره، حيث تجسد بامتداد بنيتها الصوتية بحرف المد الذي تواءمت به مع نسق الفواصل آهات الحسرة الوالهة التي تكتظ بها حناجر هؤلاء النادمين يوم القيامة.

ملاحظة مهمة:

تبدو هذه العلاقة واضحة كذلك في زيادة حرف المد في لفظة الظنونا في فاصلة الآية العاشرة من السورة ذاتها: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ [الأحزاب: ١٠] إذ في زيادة هذا الحرف -والله أعلم- فضلًا عن مراعاة نسق الفواصل بزيادته - إيماءً بأن هذه الظنون قد بلغت من حيث كثرتها وقوة سيطرتها في نفوس المؤمنين آمادًا بعيدة، وبذلك تكون فاصلة الآية قد أدت دورها في تجسيد هول هذا الموقف العصيب الذي زاغت فيه أبصار هؤلاء المؤمنين وبلغت قلوبهم الحناجر.

٤- المطر والغيث:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ [الفرقان: ٤٠].

المطر والغيث كلاهما اسم لنزول المطر من السحاب لفظهما مختلف ومعناهما واحد، وهذا هو الوارد في معاجم اللغة، المطر هو الغيث والغيث هو المطر، أما في لغة القرآن فالأمر مختلف، فالمطر لم يستعمل في القرآن إلا في مقام العذاب والانتقام من المعرضين عن رسالات الله كما تقدم في الآيات السابق ذكرها.

أما في سياق الحديث عن المؤمنين فيرد في مقام الأذى والابتلاء مثل قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء:١٠٢].

وأما الغيث فقد استعمل في مقام النعم والفضل والغوث والنجدة أي في مقامات الخير دائمًا ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان:٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى:٢٨]، ، وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد:٢٠].

٥- الميِّت والميْت:

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢].

تستعمل كلمة ميِّت بتشديد الياء في القرآن للدلالة على شيئين ما كان حيًا وفيه روح وسيموت يومًا كما في الآية الأولى، فقد أطلقت الكلمة على النبي ﷺ وأصحابه وهم لا زالوا أحياء يستمعون القرآن، والأمر الثاني تستعمل كلمة ميِّت للدلالة على ما ليس فيه روح كالأرض كما في قوله تعالى: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر:٩].

ووردت كلمة ميْت بسكون الياء للدلالة على ما مات فعلًا وفارقت روحه بدنه كما قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ [النحل:١١٥]، وكما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يس:٣٣].

٦- عرف وعلم:

في اللغة لا تكاد تحسُّ بالفرق بين الكلمتين لتقارب المعنى المراد منهما من حيث الظاهر، ولكن ذكرت بعض الفروق اللغوية الدقيقة بين الكلمتين منها:

١ - العلم يتناول كليات العلم وجزئياته، أما المعرفة فلا تتناول إلا الجزئيات وحدها.

٢- العلم لا يشترط فيه أن يسبقه جهل أما المعرفة فيسبقها جهل.

٣- العلم لا يكون عن تفكُّر وتدبُّر، والمعرفة لابد فيها من التفكر والتدبُّر.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البَقَرَة:٢٥٥].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البَقَرَة:٢٥٥]، وفي هاتين الآيتين كان إسنادهما إلى الخالق.

وتأتي كلمة علم مسندة إلى المخلوق كقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البَقَرَة:٦٠]،

ولم تأت كلمة علام وكلمة عليم في القرآن إلا وصفًا لله جَلَّ جلاله، ولم تطلق على المخلوق قط قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البَقَرَة:٩٥]، وقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المَائِدَة:١١٦].

وأما كلمة عرف فقد وردت في القرآن وصفًا للمخلوق، ولم ترد وصفًا للخالق قط.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البَقَرَة:١٤٦]، وقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النَّحل:٨٣].

٧- القاسطون والمقسطون:

قسط فلانٌ قسطًا: جار وعدل عن الحق فهو قاسط «وأقسط»: عدل أقسط بينهم وإليهم: عدل في القسمة والحكم فهو مقسط[(١)].

قال تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجِن:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجِن:١٥]، والمقسطون أي العادلون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحُجُرَات:٩]

---

(١) «المعجم الوجيز»، ص [٥٠١].

٨- الحر والحرور:

الحر ضد البرد والحرور ريحٌ حارة بالليل كما أن السَّموم ريحٌ حارة بالنهار، ويدل على كونها ريحًا حارة بالليل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ [فَاطِر:٢١] أي ولا المكان الذي حجبت عنه الشمس وكان هادئًا لا ريح فيه ولا الذي حجبت عنه الشمس (لغيابها بالليل) وكانت تهب عليه ريحٌ حارة.

أما الحر فهو شدة الحرارة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التَّوبَة:٨١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النَّحل:٨١]، وهذه هي المرات التي ذكرت فيها الكلمتان حيث وردت كلمة الحر في القرآن ثلاث مرات ولم ترد الحرور في القرآن إلا مرة واحدة.

٩- سفهًا وسفاهة:

السفه من الفعل المكسور العين (سَفِه) بينما السفاهة من الفعل المضموم العين (سفه)، والفرق بين المصدرين أن «السفاهة» مصدر يدل على الثبات والرسوخ، أما السفه فمصدرٌ يدلُّ على التغيُّر، فالسفاهة صفة دائمة ملازمة لصاحبها أبدًا، أما السفه فقد يكون في بعض المواطن التي قد يرجع عنها صاحبها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأَعْرَاف:٦٦-٦٧]، ووردت كلمة سفهًا مرة واحدة وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأَنْعَام:١٤٠].

١٠- سخريًا وسُخريًا:

السِّخرى بكسر السين هو السخرية والاستهزاء، والسُخرى بضم السين هو التسخير والاستعمال في الخدمة، تأمل الفرق بين المعنيين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١١]

وقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

١١- حَذَر وحِذْر:

قال تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [البقرة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٢]، وردت كلمة «حذَر» بالفتح في القرآن مرتين، بينما وردت كلمة «حِذْر» بالكسر ثلاث مرات وأضيفت كلمة «حذَر» بالفتح في المرتين إلى اسم ظاهر وهو الموت «حذر الموت».

بينما جاءت كلمة «حِذْر» بكسر الحاء مسبوقة بكلمة «خذوا» أو «ليأخذوا» «وخذوا حذركم» «وليأخذوا حذرهم» وذلك لأن هذا المصدر «حِذْر» أشد لفتًا للانتباه من المصدر الأصلي حَذَر بفتح الحاء وكأن الحِذر بالكسر آلة يقي بها المرء نفسه.

١٢- يشاق ويشاقق:

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٤].

و قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

وردت كلمة يشاق مرة واحدة موحدة القاف عندما كان متعلقها واحدًا يتصف بالوحدانية وهو الله سبحانه وتعالى، وقد وردت كلمة يشاقق مثناة القاف عندما كان الموقف يقتضي المجاهرة، فكانت المجاهرة اللفظية بتكرار حرف القاق منسقة مع المجاهرة المعنوية، قال البقاعي: أظهر القاف في كلمة يشاقق إشارة إلى تعليقه بالمجاهرة؛ لأن السياق لأهل الأوثان وهم مجاهرون، وينضاف إلى ذلك أن الآية فيها مجاهرة أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ﴾، فتبين الهدى مجاهرة بدعوة الحق لهؤلاء الكفار، وهذه هي المرة الوحيدة التي ورد فيها التعبير بكلمة يشاقق.

١٣- يثرب والمدينة:

قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ [التوبة: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

هذه هي المواضع التي ذكرت فيها مدينة رسول الله ﷺ، ولم يذكر بلفظ يثرب إلا في موضع واحد وهو: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾ [الأحزاب: ١٣] تجد في ثلاثة مواضع ذكرت لفظة المدينة بتسمية من الله عَزَّ

وجَلَّ لها، أما لفظ يثرب إنما استعمله المنافقون كما في آية الأحزاب؛ لأن المنافقين في هذا الوقت كانت لهم قوة وشوكة وأرادوا تثبيط المسلمين عن الدفاع عن المدينة، وأما في آية سورة المنافقون فقد كان اسم المدينة قد استقر ولم يعد مجال لأن يقولوا: «يا أهل يثرب»، وذلك حين انكسرت شوكة هؤلاء المنافقين وضعفت قوتهم.

خلاصة القول لم يقبلوا لفظ «المدينة» حتى إذا ضعفت شوكتهم وقويت شوكة المسلمين قبلوا اسم المدينة وتركوا استعمال اسم يثرب.

وبعد أخي الحبيب،

فإن الحديث عن الإعجاز البلاغي في القرآن بحرٌ لا ساحل له ومهما تكلم فيه المتكلمون فسوف تبقى فيه أسرار كامنة ومعاني غائبة يغترف منها كل جيل ما يناسبه، ويكشف منه كل عالم ما يلائمه، ولن يحيط واحد من أولئك بجميع معاني الإعجاز في نوعٍ واحد من إعجازه، فكيف ووجوه إعجاز القرآن كثيرة متجددة لا يزال العلم يكتشف منها وجوهًا متعددة يومًا بعد يوم، فالقرآن كلام الله، وكفى بذلك وصفًا ليعلم مدى عظمته وإعجازه.

ولعل من المناسب في ختام الحديث عن الإعجاز البلاغي في القرآن أن أذكر هذا الحوار بين الدكتور عناية الله المشرقي [١] والفلكي المشهور السير جيمس جينز يقول الدكتور المشرقي: كان ذلك يوم أحد من أيام سنة ١٩٠٩ وكان المطر ينزل بغزارة وخرجتُ من بيتي لقضاء حاجةٍ ما فإذا بي أرى الفلكي المشهور السيرجيمس جينز الأستاذ بجامعة كمبردج وإذا هو ذاهبٌ إلى الكنيسة والإنجيل والشمسية تحت إبطه فدنوت منه سَلَّمتُ عليه فلم يرد عليَّ فسلمتُ عليه مرة أخرى فسألني: ماذا تريد مني؟ فقلت أمرين الأول هو أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر فابتسم السيرجيمس

---

(١) الدكتور المشرقي من أعظم علماء الهند في الطبيعة والرياضيات ويتمتع بشهرة كبيرة في الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية غير أنه ترك المجال العلمي وخاض غمار السياسة نظرًا لسوء حالة المسلمين في الهند «الإسلام يتحدى» ص[١٣٣].

وفتح شمسيته على الفور، فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو ما الذي يدفع رجلًا ذائع الصيت في العالم مثلك أن يتوجَّه إلى الكنيسة؟!

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي، وعندما وصلتُ إلى داره في المساء خرجت ليدي جيمس في تمام الساعة الرابعة بالضبط وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني، وعندما دخلتُ عليه في غرفته وجدتُ أمامه منضدة صغيرة موضوع عليها أدوات الشاي وكان البروفيسور منهمكًا في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألني: ماذا كان سؤالك؟ ودون أن ينتظر ردي بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ونظامها المدهش وأبعادها وفواصلها الغير متناهية وطرقها ومداراتها وجاذبيتها وطوفان أنوارها المذهلة حتى إني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله جَلَّ جلاله.

أما السير جيمس فوجدتُ شعر رأسه قائمًا والدموع تنهمر من عينيه ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول: يا عناية الله عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: إنك لعظيم أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء وأشعر بسكون وسعادة عظيمين وأحسُّ بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة أفهمت يا عناية الله لماذا أذهب إلى الكنيسة؟

ويضيف عناية الله قائلًا: لقد أحدثت هذا المحاضرة طوفانًا في عقلي فقلت له: يا سيدي لقد تأثرت جدًا بالتفاصيل العلمية التي ذكرتها لي وتذكرتُ بهذه المناسبة آية من كتاب الله عَزَّ وجَلَّ، فلو سمحتم لي أن أقرأها عليكم، فقال: بكل سرور، فقرأت عليه الآية التالية: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر:٢٧-٢٨]، فصرخ السير جيمس قائلًا: إنما يخشى الله من عباده العلماء؟!

مدهش! وغريب وعجيب جدًا!! أن الأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة من أنبأ محمدًا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة مني أن القرآن موحى من عند الله.

ثم يستطرد قائلًا: لقد كان محمدٌ أميًّا ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر[1].

❁ ❁ ❁

(١) «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان، ص(١٣٣-١٣٤)، ط. المختار الإسلامي.